رَاعِي الغَنَم

تأليف
هذباء بنت على الغويلي

رسوم
أحمد رضا كامل

سفير

رَاعِي الغَنَم

كَانَ يَا مَا كَان فِي سَالِفِ العَصْرِ وَالأوانِ فِي إِحْدَى بُلدَانِ العَرَبِ مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ مَنَّ اللهُ عَلَيْهَا بِخَيْرٍ عَمِيمٍ زَادَتْهَا طِيبَةُ سُكَّانِهَا وَعَدْلُ حَاكِمِهَا جَمَالاً وَأَمَانًا. وَكَانَ يَعِيشُ فِي هَذِهِ المَدِينَةِ رَاعِي الغَنَمِ عَبْدُ اللهِ، وَهوَ شَابٌّ فِي العِشْرِينَ مِنَ العُمرِ، عُرِفَ بِأَمَانَتِهِ وَنَزَاهَتِهِ وَحُبِّهِ لِلآخَرِينَ.

كَانَ عَبدُ اللهِ يَسكُنُ فِي بَيتٍ قَدِيمٍ رِفقَةَ أُمِّهِ العَجُوزِ الَّتِي كَانَ يَسْهَرُ عَلَى رَاحَتِهَا، كَانَ يَسْتَيقِظُ كُلَّ صَبَاحٍ قَبْلَ صَلاةِ الفَجْرِ، يُجَهِّزُ الفَطُورَ وَيُوقِظُ أُمَّهُ ثُمَّ يَتَوجَّهُ إِلَى حَظِيرَةِ الحَاكِمِ فَيَأْخُذُ شِيَاهَهُ وَيَتَوكَّلُ عَلَى اللهِ قَاصِدًا الغَابَةَ، وَرَغْمَ كَثْرَةِ عَدَدِ أَغْنَامِ الحَاكِمِ لَمْ يَجِدْ يَومًا صُعُوبَةً فِي عَمَلِهِ.

فَعَبدُ اللهِ يَعْمَلُ رَاعِيًا لَدَى الحَاكِمِ مُنذُ أَن كَانَ صَبِيًّا، خَبِرَ جَمِيعَ المَرَاعِي وَالمَوَاقِعِ الخِصْبَةِ، فَكَانَ

يَأخذُ الأَغنَامَ حَيْثُ الحَشِيشُ الغَضُّ الوَفِيرُ، وَعِنْدَمَا تَنْهَمِكُ الأَغْنَامُ فِي الْتِهَامِ الحَشِيشِ يَسُلُّ هُوَ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ نَايًا لَـمْ يُفَارِقهُ مُنذُ الصِّبَى وَيشْرَعُ فِي النَّفْخِ فِيه، فَتَنْسَابُ مِنْهُ أَلْـحَانٌ عَذْبَةٌ يَطرَبُ لِسَمَاعِهَا جَمِيعُ الحَيَوَانَاتِ وَخَاصَّةً كَلْبُهُ "سَوَادَ اللَّيْلِ". وَعِندَمَا تَمِيلُ الشَّمْسُ إِلَى المَغِيبِ يَأْخُذُ أَغْنَامَهُ عَائِدًا فَيُدْخِلُهَا الحَظِيرَةَ مَعَ عُمَّالِ الحَاكِمِ، وَبَعْدَ أَنْ تُعْطِيَهُ خَادِمَةُ القَصْرِ مَا كُتِبَ لَهُ مِنَ الطَّعَامِ يَعُودُ إِلَى البَيْتِ فَيُقَدِّمَهُ إِلَى أُمِّهِ، وَإِذَا طَلَبَتْ مِنْهُ مُشَارَكَتَهَا الطَّعَامَ يَدَّعِي أَنَّهُ أَكَلَ مَعَ خَدَمِ الحَاكِمِ. ثُمَّ يَأكُلُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا تُبْقِيهِ هِيَ مِنَ الأَكْلِ.

كَانَ عَبدُ اللهِ لاَ يَنَامُ حَتَّى يَنْتَهِيَ مِنْ تَرْتِيبِ البَيْتِ وَغَسْلِ الأَوَانِي وَالمَلاَبِسِ وَجَلْبِ المَاءِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الأَعْمَالِ المَنْزِلِيَّةِ، فَأُمُّهُ عَجُوزٌ مُتَقَدِّمَةٌ فِي السِّنِّ لاَ تَقْدِرُ عَلَى فِعْلِ أَيِّ شَيْءٍ. وَكَانَتْ تُكْثِرُ لَهُ بِالدُّعَاءِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا.

وَذَاتَ يَوْمٍ، فِي أَحَدِ أَيَّامِ الصَّيْفِ الحَارَّةِ أَخَذَ عَبدُ اللهِ أَغْنَامَهُ رِفقَةَ كَلْبِهِ "سَوَادِ اللَّيلِ" إِلَى طَرَفِ الغَابَةِ الخَلْفِيِّ، وَبَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ سَمِعَ وَقْعَ أَقْدَامِ خَيْلٍ كَثِيرَةٍ، اخْتَفَى بَيْنَ الأَغْصَانِ وَأَمْعَنَ النَّظَرَ، فَإِذَا هِيَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الفُرْسَانِ يَتَجَاوَزُ عَدَدُهَا الثَّلاَثِينَ، يَحْمِلُونَ سُيُوفًا وَنِبَالاً مُرْتَدِينَ لِبَاسًا مُوَحَّدًا أَسْوَدَ اللَّوْنِ.

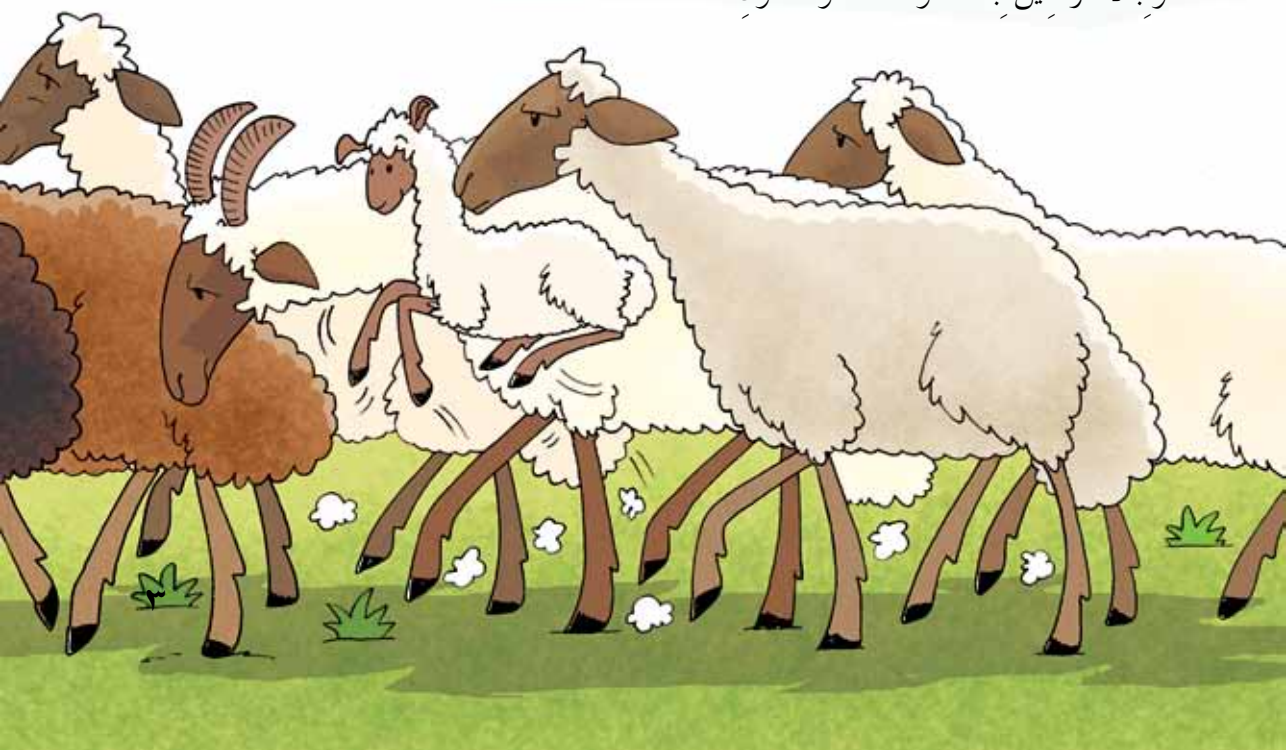

اِشْتَدَّ خَوْفُ عَبدُ الله، وَخَشِيَ أَنْ تَكُونَ عِصَابَةَ "النُّمُورِ السُّودِ"، وَتَأَكَّدَ ظَنُّهُ، فَقَدْ سَمِعَهُمْ يَقُولُونَ: نَحْنُ عِصَابَةُ النُّمُورِ الَّتِي لاَ تُقْهَرُ، وَسَنَقْضِي بَعْدَ يَوْمَيْنِ عَلَى هَذِهِ المَدِينَةِ كَمَا قَضَيْنَا عَلَى العَدِيدِ مِنَ الـمُدنِ المُجَاوِرَةِ الأُخْرَى، ثُمَّ يَنْفَجِرُونَ ضَحِكًا.

وَلَمَّا سَمِعَ عبدُ الله كَلاَمَهُم كَادَ قَلْبُهُ يَتَوَقَّفُ مِنْ شِدَّةِ الخَـوْفِ، وَأَدْرَكَ أَنَّ مَدِينَتَهُ فِي

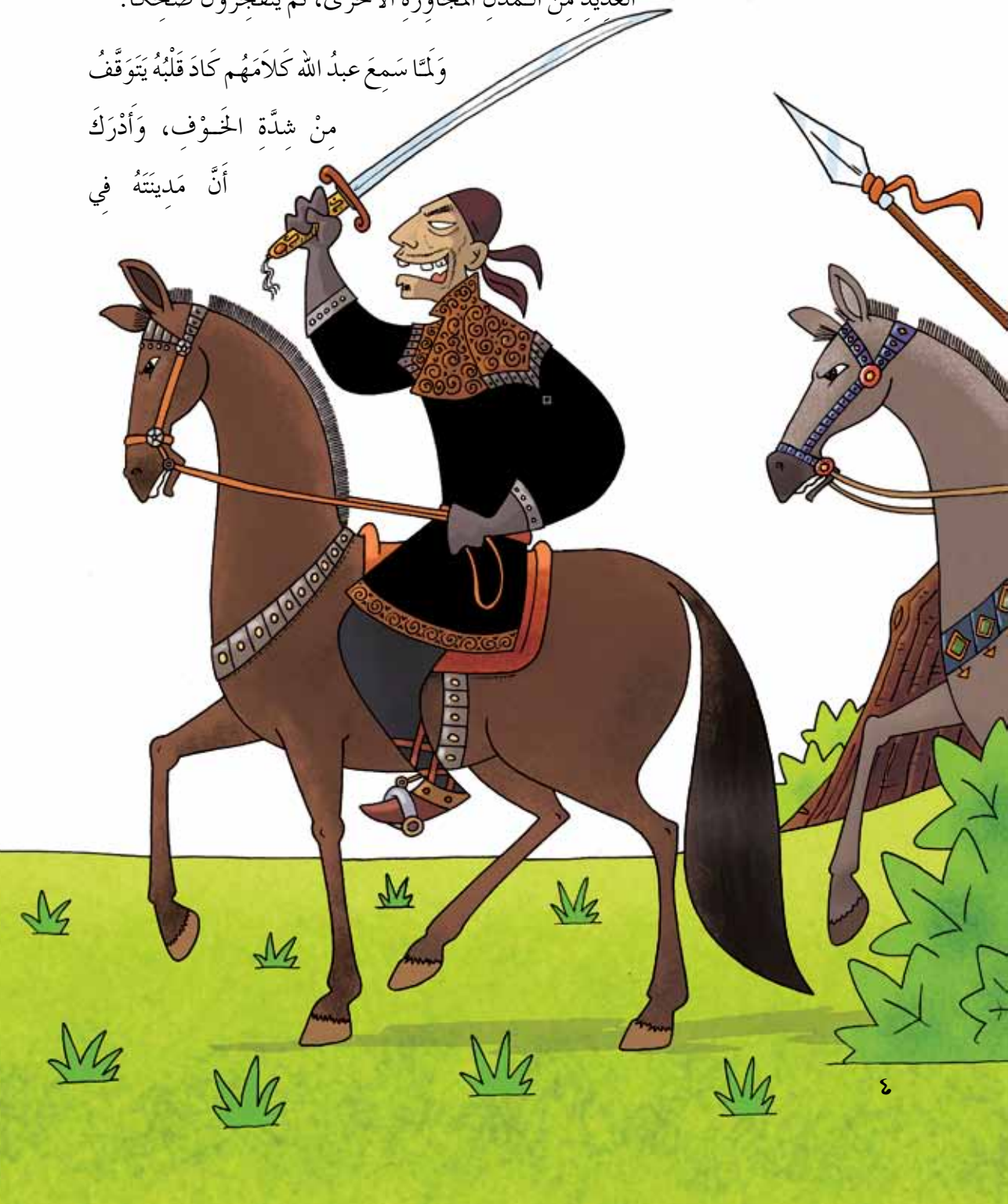

خَطَرٍ، وَيَجِبُ أَنْ يُحَذِّرَهَا قَبْلَ قُدُومِ الأَشْرَارِ إِلَيْهَا وَتَخْرِيبِهَا. وَقَبْلَ أَنْ يَهُمَّ بِالفِرَارِ أَدْرَكَهُ ثَلاثَةٌ مِنَ الفُرْسَانِ وَأَحَاطُوا بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَسُرْعَانَ مَا قَيَّدُوهُ وَحَمَلُوهُ مَعَهُمْ إِلَى إِحْدَى مَغَاوِرِ الغَابَةِ، وَهُنَاكَ قَالَ قَائِدُ عِصَابَةِ النُّمُورِ: مَا اسْمُكَ يَا فَتَى؟ أَظُنُّ أَنَّكَ مِنْ سُكَّانِ هَذِهِ البَلْدَةِ وَرَاعِي أَحَدِ أَغْنِيَائِهَا، فَأَجَابَهُ عَبدُ اللهِ مُتَلَعْثِمًا: أَنَا اِسْمِي عَبْدُ اللهِ وَأَرْعَى أَغْنَامَ الحَاكِمِ.

تَهَلَّلَتْ أَسَارِيرُ وَجْهِ الزَّعِيمِ، وَقَالَ: هَذَا جَيِّدٌ، فَأَنْتَ تَعْرِفُ الحَاكِمَ وَتَعْرِفُ مَدَاخِلَ المَدِينَةِ مَعْرِفَةً جَيِّدَةً.

تَلَعْثَمَ عَبْدُ اللهِ وَقَالَ: نَعَمْ سَيِّدِي.

أَضَافَ الزَّعِيمُ: إِذَنْ سَتُسَاعِدُنَا فِي مُهِمَّتِنَا وَتَصِفُ لَنَا مَدَاخِلَ المَدِينَةِ الحَصِينِ وَالضَّعِيفِ مِنْهَا.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بَعْدَ أَنْ اسْتَجْمَعَ قُوَّتَهُ: لَنْ أَفْعَلَ سَيِّدِي وَأَخُونُ وَطَنِي وَمَسْقَطَ رَأْسِي.

غَضِبَ الزَّعِيمُ، لَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا هَدَأَ وَقَالَ: سَتُصْبِحُ أَحَدَ أَهَمِّ رِجَالِي، وَسَأُغْدِقُ عَلَيْكَ

مِنَ الأَمْوَالِ بِدُونِ حِسَابٍ وَعِنْدَمَا نُسَيْطِرُ عَلَى المَدِينَةِ سَأَجْعَلُكَ مِنْ خَاصَّتِي وَحَاشِيَتِي.

فَزَادَ غَضَبُ عَبْدِ اللهِ، وَقَالَ: لَنْ أَخُونَ أَهْلِي وَعَشِيرَتِي فَبَيْنَهُمْ نَشَأْتُ وَمَعَهُمْ تَرَعْرَعْتُ.

اشْتَدَّ غَضَبُ الزَّعِيمِ فَصَفَعَهُ صَفْعَةً عَلَى وَجْهِهِ أَسَالَتْ الدَّمَ مِنْ فَمِهِ، وَلَوْلاَ قُوَّةُ بُنْيَتِهِ لَطَرَحَتْهُ أَرْضًا. بَعْدَ أَنْ صَفَعَهُ أَمَرَ بِشَدِّ وِثَاقِهِ وَجَلْدِهِ حَتَّى يُوَافِقَ عَلَى مُسَاعَدَتِهِمْ.

عَذَّبُوهُ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ الزَّعِيمُ يَأْمُلُ أَنْ يُوَافِقَ عَلَى مُسَاعَدَتِهِمْ، لَكِنَّهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَزْدَادُ إِصْرَارًا وَعَزْمًا، وَيَرْفُضُ بِشِدَّةٍ مُسَاعَدَتَهُمْ. وَعِنْدَمَا يَئِسَ الزَّعِيمُ مِنْهُ، قَالَ لَهُ: نَحْنُ سَنَدْخُلُ المَدِينَةَ

وَسَنُسَيْطِرُ عَلَيْهَا، فَلَنَا عُيُونٌ هُنَاكَ سَتُسَاعِدُنَا شِئْتَ أَمْ أَبَيْتَ. ازْدَادَ خَوْفُ عَبْدِ اللهِ وَجَعَلَ يُفَكِّرُ فِي مَدِينَتِهِ الحَبِيبَةِ، فَلَمْ يَعْرِفْ أَرْضًا غَيْرَ أَرْضِهَا وَلَمْ يُحِبَّ أُنَاسًا كَمَا أَحَبَّ أَهْلَهَا، فَكَيْفَ لَهُ أَنْ يَخُونَهَا وَيَكُونَ سَبَبًا فِي تَشْرِيدِ أَهْلِهَا وَقَتْلِ حَاكِمِهَا العَادِلِ الَّذِي كَانَ يُعَامِلُهُ بِلُطْفٍ وَصِدْقٍ.

لاَ، لاَ، وَأَلْفُ لاَ، لَيْسَتِ الخِيَانَةُ مِنْ شِيَمِ الكِرَامِ، وَلَنْ أَكُونَ لَئِيمًا جَاحِدًا لِفَضْلِ وَطَنِي عَلَيَّ، وَإِنْ خُنْتُهُ وَسَلَّمْتُهُ لِهَؤُلاَءِ الأَشْرَارِ فَهَلْ سَأَنْعَمُ بِالأَمَانِ الَّذِي أَنْعَمُ بِهِ الآنَ؟ وَهَلْ سَأَشْعُرُ بِرَاحَةِ البَالِ كَمَا هُوَ الحَالُ الآنَ؟ وَكَيْفَ لِي أَنْ أُقَابِلَ رَبِّي إِنْ متُّ؟ وَمَاذَا سَأَقُولُ يَوْمَ الحِسَابِ إِنْ سُئِلْتُ عَنِ الأَرْوَاحِ الَّتِي سُلِبَتْ بِأَمْرِي وَعَنِ الدِّمَاءِ الَّتِي سَالَتْ بِمُسَاعَدَتِي لِلأَشْرَارِ.

لاَ، وَأَلْفُ لاَ لِلطُّغَاةِ المُتَجَبِّرِينَ، يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أُخَلِّصَ نَفْسِي مِنْ أَسْرِهِمْ وَأَفِرَّ لأُحَذِّرَ أَهْلَ المَدِينَةِ مِنَ الخَطَرِ المُحْدِقِ بِهِمْ.

لَـمَّا شَدَّ رِجَالُ عِصَابَةِ النُّمُورِ وِثَاقَ عَبْدِ اللهِ كَانَ كَلْبُهُ "سَوَادُ اللَّيْلِ" فِي أَسْفَلِ الوَادِي يَشْرَبُ المَاءَ، وَعِنْدَمَا عَادَ لَـمْ يَجِدْهُ، سَاقَ الأَغْنَامَ إِلَى الحَظِيرَةِ، وَلَمَّا وَصَلَ شَرَعَ يَنْبَحُ نُبَاحًا مَرِيرًا، فَأَدْرَكَ عُمَّالُ الحَظِيرَةِ أَنَّ أَمْرًا حَدَثَ لِعَبْدِ اللهِ، فَخَرَجُوا يَبْحَثُونَ عَنْهُ، وَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ وَلَـمْ يَجِدُوهُ عَادُوا أَدْرَاجَهُمْ، وَذَهَبَ أَحَدُ العُمَّالِ إِلَى وَالِدَتِهِ يُخْبِرُهَا بِالأَمْرِ فَبَاتَتِ المِسْكِينَةُ بَاكِيَةً رَاجِيَةً مِنَ اللهِ أَنْ يُعِيدَ لَهَا فَلْذَةَ كَبِدِهَا فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ.

وَلَـمَّا طَلَعَ الفَجْرُ اسْتَيْقَظَ الزَّعِيمُ وَرِجَالُهُ، وَاسْتَيْقَظَ عَبْدُ اللهِ عَلَى وَقْعِ أَقْدَامِهِمْ فَاقْتَرَبَ مِنْهُ

الزَّعِيمُ وَأَلَحَّ فِي طَلَبِ مُسَاعَدَتِه، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ تَبُوءُ مُحَاوَلَتُهُ بِالفَشَلِ، فَقَالَ لَهُ بَعْدَ أَنْ يَئِسَ: يَبْدُو أَنَّ حَيَاةَ البُؤْسِ وَالفَقْرِ الَّتِي تَعِيشُهَا الآنَ قَدْ أَعْجَبَتْكَ حَتَّى بِتَّ لاَ تُطِيقُ فِرَاقَهَا، فَمَاذَا قَدَّمَتْ لَكَ هَذِهِ المَدِينَةُ غَيْرَ الفَقْرِ وَالتَّشَرُّدِ، إِنَّكَ فِي أَدْنَى مَرْتَبَةٍ وَأَحَطَّهَا بَيْنَ نَاسِهَا.

لَكِنَّ كَلاَمَهُ ذَلِكَ لَمْ يُزَحْزِحْ مَوْقِفَ عَبْدِ اللهِ قَيْدَ أُنْمُلةٍ، وَكَانَ يَقُولُ لَهُ: صَحِيحٌ أَنَا فِي أَدْنَى مَرْتَبَةٍ بَيْنَ أُنَاسِهَا،وَلَكِنِّي أَعِيشُ فِي أَمَانٍ وَأَنْعَمُ بِعَدْلِ حَاكِمِهَا ورِفْقِهِ. إِضَافَةً إِلَى أَنَّنِي أَتَنَفَّسُ الحُرِّيَّةَ وَأَعِيشُ حُرًّا، وَأَنَا أُفَضِّلُ أَنْ أَعِيشَ بَيْنَ الأَغْنَامِ عَلَى أَنْ يَحْكُمَنِي طَاغِيَةٌ جَبَّارٌ ظَالِمٌ قَاطِعُ طُرُقٍ مِثْلَكَ.

عِنْدَهَا بَلَغَ الغَضَبُ بِالزَّعِيمِ مَبْلَغًا لَـمْ يَعْرِفْهُ قَبْل، فَانْهَالَ عَلَيْهِ ضَرْبًا وَرَكْلاً وَدَهْسًا، وَأَمَرَ بِجَلْدِهِ حَتَّى المَوْتِ.

تَوَلَّى هَذِهِ المُهِمَّةَ أَحَدُ صَعَالِيكِهِ فَأَلْهَبَ ظَهْرَ عَبْدِ اللهِ جَلْدًا حَتَّى تَوَرَّمَ جِلْدُهُ وَسَالَ دَمُهُ وَفَقَدَ وَعْيَهُ.

عِنْدَهَا أَلْقَى السِّيَاطَ مِنْ يَدِهِ وَالْتَحَقَ بِبَقِيَّةِ العِصَابَةِ، وَقَبْلَ أَنْ يُغْمَى عَلَيْهِ سَمِعَ الزَّعِيمَ يَقُولُ: نَحْنُ لَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى جَرْدٍ مِثْلِهِ فَلَقَدْ أَخْبَرَنَا رَجُلُنَا حَفْص أَنَّهُ سَيَتْرُكُ لَنَا بَابَ سُورِ المَدِينَةِ الخَلْفِيّ مَفْتُوحًا بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، وَعَلَيْنَا أَنْ نُجَهِّزَ أَنْفُسَنَا حَتَّى نَكُونَ عَلَى أُهْبَةِ الاِسْتِعْدَادِ.

لَـمْ يَدْرِ عَبْدُ اللهِ كَمْ مَضَى عَلَيْهِ مِنَ الوَقْتِ فَاقِدًا وَعْيَهُ مُمَدَّدًا عَلَى الأَرْضِ، وَلَكِنَّ إِحْسَاسَهُ بِالأَلَمِ الشَّدِيدِ حَالَ دُونَهُ وَالحَرَاك.

بَعْدَ أَنِ اسْتَفَاقَ عَبْدُ اللهِ بِقَلِيلٍ سَمِعَ حَرَكَةً دَاخِلَ المَغَارَةِ فَظَنَّ أَنَّ أَحَدَهُمْ عَادَ لِيَقْتُلَهُ، فَتَظَاهَرَ بِالمَوْتِ، لَكِنَّهُ أَحَسَّ بِلِسَانٍ يَلْعَقُهُ فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فَوَجَدَ كَلْبَهُ "سَوَادَ اللَّيْلِ" يُضَمِّدُ جِرَاحَهُ، فَفَرِحَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَأَشَارَ إِلَيْهِ أَنْ يُسَاعِدَهُ عَلَى فَكِّ وِثَاقِهِ فَنَجَحَا، تَحَامَلَ عَبْدُ اللهِ عَلَى نَفْسِهِ وَوَقَفَ، لَكِنَّهُ

عِنْدَمَا تَذَكَّرَ عِصَابَةَ النُّمُورِ نَسِيَ آلاَمَهُ وَدِمَاءَهُ الجَارِيَةَ، وَقَال: يَارَبِّي سَاعِدْنِي لأَصِلَ قَبْلَهُمْ.

فِي هَذِه الأَثْنَاءِ تَذَكَّرَ عَبْدُ الله الطَّرِيقَ السِرِّيَّ الَّذِي يُوصِلُ إِلَى قَصْرِ الحَاكِمِ مُبَاشَرَةً. كَانَ دِهْلِيزًا يَنْطَلِقُ مِنْ قَصْرِ الحَاكِمِ إِلَى خَارِجِ المَدِينَةِ. أَسْرَعَ عَبْدُ الله إِلَى مَدْخَلِهِ وَأَزَاحَ الصَّخْرَةَ عَنْهُ وَشَرَعَ يَعْدُو هُوَ وَكَلْبُه دُونَ تَوَقُّفٍ.

وَأَثْنَاءَ عَدْوِهِ كَانَ يَتَذَكَّرُ مَا رَوَاهُ لَهُ جَدُّهُ وَهُوَ صَبِيٌّ عَنْ مَرَارَةِ الاِسْتِعْمَارِ وَعَنْ قِيمَةِ الحُرِّيَّةِ وَالوَطَنِ فَقَدْ كَانَ جَدُّهُ يُرَدِّدُ دَائِمًا: لِيَفْنَى كُلُّ النَّاسِ مُقَابِلَ سَلاَمَةِ الوَطَنِ وَالحُرِّيّةِ، فَلاَ مَعْنَى لِلْحَيَاةِ إِنْ كَانَتْ مُجَرَّدَةً مِنَ الحُرِّيَّةِ، إِنَّ عُصْفُورًا لاَ يُدْرِكُ مَعْنَى لِلْحَيَاةِ دَاخِلَ القَفَصِ الذَّهَبِي بَلْ لاَ يَهُمُّهُ إِنْ وَضَعُوهُ فِي قَفَصٍ ذَهَبِيّ أَوْ مِنَ الحَدِيدِ طَالَمَا أَنَّهُ لاَ يَتَنَفَّسُ هَوَاءَ الحُرِّيَّةِ.

ثُمَّ جَعَلَ عَبْدُ اللهِ يُرَدِّدُ فِي نَفْسِهِ: أَنَا حُرٌّ وَسَأَعِيشُ حُرًّا وَسَأَدْفَعُ دَمِي فِدَاءً لِوَطَنِي الغَالِي، وَلَنْ أَسْمَحَ لِشِرْذِمَةٍ طَاغِيَةٍ بِالنَّيْلِ مِنْهُ.

لَـمَّا وَصَلَ عَبْدُ اللهِ سَاحَةَ القَصْرِ أَحَاطَتْ بِهِ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الجُنُودِ مُشْهِرِينَ سُيُوفَهُمْ فِي وَجْهِهِ، فَصَاحَ فِيهِمْ عَبْدُ اللهِ، ابْتَعِدُوا عَنِّي، البِلاَدُ فِي خَطَرٍ. وَطَلَبَ مُقَابَلَةَ الحَاكِمِ لَكِنَّهُمْ لَـمْ يَسْمَحُوا لَهُ، وَحَاوَلُوا شَدَّ وِثَاقِهِ، فَأَخَذَ يَصْرُخُ وَيُنَادِي : سَيِّدِي الحَاكِم، سَيِّدِي الحَاكِم...

سَمِعَ الحَاكِمُ ضَجِيجًا فَخَرَجَ وَاقْتَرَبَ مِنَ الجُنودِ مُتَسَائِلاً ، فَهَرْوَلَ عَبْد اللهِ نَحْوَهُ وَقَالَ:

سَيّدي الحَاكِم أَرْجُوكَ اِسْمَعْنِي.

فَقَالَ لَهُ الحَاكِمُ الذِّى لَـمْ يَعْرِفْهُ لِكَثْرَةِ جُرُوحِهِ وَتَوَرُّمِ وَجْهِهِ: مَنْ أَنْتَ؟

قَالَ عَبْدُ الله: أَنَا خَادِمُكَ الأمين عَبْد الله رَاعِي الأَغْنَام.

اِسْتَغْرَبَ الحَاكِمُ، وَقَالَ لَهُ: وَمَنِ الَّذِي فَعَلَ بِكَ هَذَا؟

صَمَتَ عَبدُ الله، وقَالَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ:

سَيّدي الحَاكِم أُرِيدُ أَنْ أُكَلّمَكَ عَلَى اِنْفِرَادٍ.

وَافَقَ الحَاكِمُ وَأَخَذَهُ إِلَى غُرْفَةِ الاِجْتِمَاعَاتِ. لَمَّا دَخَلاَ أَوْصَدَ الحَاكِمُ البَابَ، قَالَ عَبْدُ الله مُتَلَعْثِمًا: سَيّدي إِنَّ البِلاَدَ فِي خَطَرٍ وَعِصَابَةُ النُّمُورِ سَتُهَاجِمُ البِلاَدَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ.

عِنْدَمَا سَمِعَ الحَاكِمُ هَذَا الخَبَرَ اِنْدَهَشَ؛ فَهُوَ يَعْرِفُ خُطُورَةَ عِصَابَةِ النّمُور، وَلَكِنْ لَـمْ يَكُنْ يَعْرِفُ أَنَّ سَاعِدَهُمْ قَد اِشْتَدَّ إِلَى هَذَا الحَدِّ.

ثُمَّ اسْتَدَارَ إِلَى عَبدِ الله قَائِلاً: وَمِنْ أَيْنَ لَكَ بِهَذَا الخَبَرِ؟

فَقَصَّ عَلَيْهِ عَبدُ الله مَا حَدَثَ لَهُ مَعَ العِصَابَةِ. وَأَمَرَ الحَاكِمُ بَعْدَ ذَلِكَ بِإِحْضَارِ حَفْص وَهُوَ مَسئولٌ عَن دِيوَان المُرَاسَلاَتِ.

جَلَبَ الحَرَسُ حَفْصًا، وَلَمَّا وَاجَهَهُ الحَاكِمُ بِالحَقِيقَةِ أَنْكَرَ، فَصَرَخَ الحَاكِمُ فِي وَجْهِهِ وَسَلَّ سَيْفَ أَحَدِ حُرَّاسِهِ قَائِلاً: اعْتَرِفْ بِالحَقِيقَةِ وَإِلاَّ قَطَعْتُ رَأْسَكَ، فَجَثَا حَفْص عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَشَرَعَ يَبْكِي وَيَطْلُبُ العَفْوَ وَالرَّحْمَةَ. كَانَ هَذَا كَافِيًا لِلاعْتِرَافِ بِفِعْلَتِهِ، فَأَمَرَ الحَاكِمُ بِوَضْعِهِ فِي السِّجْنِ لِيُنْظَرَ فِي أَمْرِهِ فِيمَا بَعْدُ.

بَدَتْ الحَيْرَةُ عَلَى وَجْهِ الحَاكِمِ، وَدَعَا كَبِيرَ جُنْدِهِ لِيُشَاوِرَهُ فِي الأَمْرِ. مَضَتْ أَكْثَرُ مِنْ سَاعَةٍ وَهُمْ يُفَكِّرُونَ فِي حِيلَةٍ تُنْجِيهِمْ مِنْ شَرِّ عِصَابَةِ النُّمُورِ وَتُوقِعُهُمْ فِي الأَسْرِ دُونَ أَنْ تُرَاقَ قَطْرَةُ دَمٍ وَاحِدَةٍ.

قَفَزَ عَبْدُ اللهِ مِنْ مَكَانِهِ، وَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْتُ فِكْرَةً مُنَاسِبَةً تَقْضِي عَلَيْهِمْ جَمِيعًا دُونَ أَنْ نُوَاجِهَهُمْ. فَرِحَ الحَاكِمُ وَاقْتَرَبَ مِنْ عَبْدِ اللهِ وَقَالَ لَهُ: هَيَّا أَخْبِرْنَا بِهَا يَا عَبْدَ اللهِ. فَقَالَ عَبدُ اللهِ: إِنَّ أَعْدَاءَنَا يُفَكِّرُونَ فِي الدُّخُولِ إِلَى المَدِينَةِ مِنَ بَابِ المَدِينَةِ الخَلْفِيِّ فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، وَأَرَى يَا سَيِّدِي أَنْ نَضَعَ الآنَ مَجْمُوعَةً مِنَ قُدُورِ الزَّيْتِ تَغْلِي، وَعِنْدَمَا يَأْتِي أَعْدَاؤُنَا نَسْكُبُهَا عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِ، فِي حِينَ يَكْمُنُ جُنُودُنَا دَاخِلَ الغَابَةِ، فَإِذَا فَرَّ أَعْدَاؤُنَا مِنْ حَرَارَةِ الزَّيْتِ إِلَى جِيَادِهِمْ يُفَاجِئُهُمْ جُنُودُنَا، وَعِنْدَهَا يَكُونُ مُعْظَمُ أَعْدَائِنَا غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَى حَمْلِ سُيُوفِهِمْ مِنْ جَرَّاءِ الآلَامِ الَّتِي سَيُخَلِّفُهَا الزَّيْتُ الحَارُّ، وَعِنْدَهَا نُطَوِّقُهُمْ مِنَ الخَلْفِ وَنُلْقِي عَلَيْهِمِ القَبْضَ.

أُعْجِبَ الحَاكِمُ بِالخُطَّةِ أَيَّمَا إِعْجَابٍ وَأَمَرَ بِتَنْفِيذِهَا، وَعِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ قَدِمَ الأَعْداءُ فَوَجَدُوا الحَاكِمَ وَرِجَالَهُ فِي انْتِظَارِهِمْ. وَنَجَحَتْ خُطةُ عَبدِ اللهِ نَجَاحًا بَاهِرًا وَأُسِرَ الأَشْرَارُ وَزُجَّ بِهِمْ فِي

السّجنِ. وَبَعْدَ نَجَاحِ الخُطّةِ سَقَطَ عَبْدُ اللهِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَحُمِلَ إِلَى جَنَاحٍ خَاصّ فِي قَصْرِ الحَاكِمِ وَأَمَرَ الحَاكِمُ طَبِيبَهُ بِتَطْبِيبِهِ، كَمَا أَمَرَ أَحَدَ خَدَمِهِ بِإِحْضَارِ أُمِّ عبدِ اللهِ الَّتِي أَصَابَهَا الهَلَعُ وَالفَزَعُ عِنْدَمَا سَمِعَتْ بِمَا تَعَرَّضَ لَهُ ابْنُهَا مِنْ تَعْذِيبٍ.

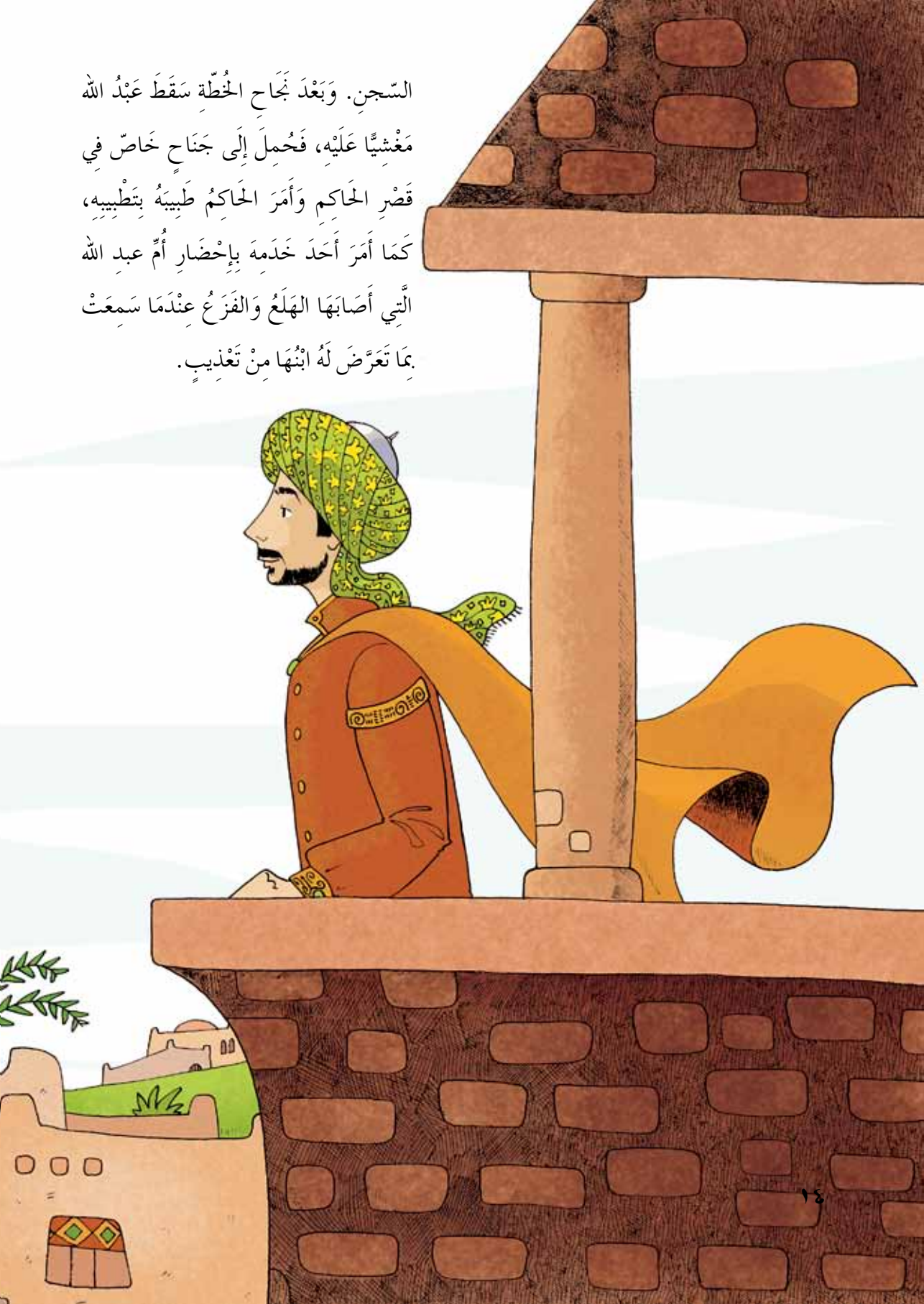

بَقِيَ عَبْدُ اللهِ يَوْمَيْنِ كَامِلَيْنِ فِي غَيْبُوبَةٍ وَالكُلُّ يَسْأَلُ عَنْهُ بِشَغَفٍ وَيَدْعُو لَهُ بِالشِّفَاءِ، فَقَدْ أَصْبَحَ ابنًا لِكُلِّ عَائِلَةٍ فِي المَدِينَةِ، وَقَدْ زَادَتْهُ هَذِهِ الحَالَةُ حُبًّا وَتَقْدِيرًا عِنْدَ الجَمِيعِ وَبَاتوا يُسَمُّونَهُ "مُنْقِذ المَدِينَةِ". وَفِي صَبَاحِ اليَوْمِ الثَّالِثِ فَتَحَ عَبدُ اللهِ عَيْنَيْهِ وَاسْتَرْجَعَ وَعْيَهُ فَفَرِحَ الطَّبِيبُ فَرَحًا شَدِيدًا وَأَسْرَعَ أَحَدُ الخَدَمِ لِيُبَشِّرَ الحَاكِمَ الَّذِي أَسْرَعَ هُوَ بِدَوْرِهِ لِيَطْمَئِنَّ عَلَى حَالِ عَبدِ اللهِ وَيَشْكُرَه عَلَى مَا فَعَلهُ لِيُنْقِذَ المَدِينَةَ. وَبَعْدَ أُسْبُوعٍ تَمَاثَلَ عَبْدُ اللهِ لِلشِّفَاءِ فَأَمَرَ الحَاكِمُ بِتَعْيِينِهِ مُسَاعِدًا لِكَبِيرِ الحُرَّاسِ، وَبَعْدَ سَنَةٍ تُوُفِّيَ كَبِيرُ الحُرَّاسِ فَعَينَ الحَاكِمُ مَحَلَّهُ عَبْد اللهِ.

وَكَانَ لِلحَاكِمِ فَتَاةٌ جَمِيلَةٌ عُرِفَتْ بِحُبِّهَا لِشَعْبِهَا وَتَوَاضُعِهَا وَحِكْمَتِهَا. وَعِنْدَمَا بَلَغَتْ سِنَّ الزَّوَاجِ زَوَّجَهَا الحَاكِمُ مِنْ عَبدِ اللهِ، وَحَرِصَ الحَاكِمُ حِرْصًا شَدِيدًا عَلَى أَنْ يَتَعلَّمَ عبدُ اللهِ مَا فَاتَهُ مِنْ عُلُومِ الدِّينِ وَالفَلْسَفَةِ وَالتَّارِيخِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ. فَبَرَعَ عَبدُ اللهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فُنُونِ القِتَالِ، فَقَد أَتْقَنَهَا وَبَرَعَ فِيهَا حَتَّى لَـمْ يَعُدْ لَهُ فِي المَدِينَةِ نَظِيرٌ.

وَبَعْدَ خَمْسِ سَنَوَاتٍ مِنْ تِلكَ الحَادِثَةِ مَرِضَ الحَاكِمُ مَرَضًا شَدِيدًا، وَقَبْلَ وَفَاتِهِ أَمَرَ بِالحُكْمِ لِعَبدِ اللهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَكَانَ خَيْرَ خَلَفٍ لِخَيْرِ سَلَفٍ، فَقَدْ أَخَذَ مِنْ حَاكِمِهِ كُلَّ صِفَاتِ الحِكْمَةِ وَزَادَ عَلَيْهَا وَنَشَرَ العَدْلَ خَارِجَ المَدِينَةِ، فَبِفَضْلِ حُسْنِ تَدْبِيرِهِ انْضَمَّتْ إِلَى المَدِينَةِ عَشَرَاتٌ مِن المُدنِ الضَّعِيفَةِ، وَأَدْرَكُوا أَنَّ فِي اتِّـحَادِهِمْ قُوَّةً وَأَنَّ الذِّئَابَ تَأْكُلُ مِنَ الغَنَمِ القَاصِيَةِ.

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع : ٢٢٦٢ / ٢٠١٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 978-977 - 361 -777 - 9

٧ ش الموسيقار على إسماعيل (عدى سابقًا) الدقى – القاهرة

ت : ٣٧٦٠٨٧٠٣ (٢٠٢+) ٣٧٦٠٨٥٨١ (٢٠٢+)

فاكس : ٣٧٦٠٨٦٥٠ (٢٠٢+) ص. ب ٤٢٥ الدقى

Tel. : (+202) 37 60 8703 (+202) 37 60 8581 Fax : (+202) 37 60 8650

Web Site: www.safeer.com.eg E-Mail: info@safeer.com.eg